سياحة نفسية

في رسائل الإمام الغزالي

كيمياء السعادة

والرسالة اللدنية

والمنقذ من الضلال

بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

الإهداء

إلى من أفرغ في جوفي جوالق الشوق والذوق ،

ورسم لي بعاطفته وعقله منافذ الطوق ،

وعرك بإبهامه وسبابته شحمة أذناي حتى احمرتا ،

واستجابت جفوني فأسلبت واجتلت الغشاوة في مخدع

المحاسبة الذاتية ،

إليه ما جمعتُ ،

وأقبّلُ كفّه راضياً وأتمنى أن يمنحني الدعاء ،

وأن يأخذ بيدي إلى الباب الذي اعتدنا أن نأنس إليه ،

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد حمده وشكره: ها أنذا قد تطفلت بقصوري وضعفي على أمر كبير وبحر غزير ، رغبة في معرفة الحقيقة من مصادرها النقية ، فقد جُبلت منذ أن عرفتُ نفسي على البحث والتنقيب عن كل ما يفيدني ، راغباً في إجلاء الغشاوة عن عينيّ وإزالة الران عن قلبي ، وتعددت قراءاتي ومطالعاتي ، واستقيتُ من موارد عديدة ومتنوعة ، وشربتُ من مناهل متفرقه ومتباينة ، ولكن.. ومع كثرة ما شربتُ.. زدتُ قلقاً على قلقي ، وحيرةً على حيرتي.. تجلتْ في أبيات قصيرة قلتُها في لحظة من تلك اللحظات :

ماذا يقول وماذا يصنع البشرُ ... وما لنفسي مع الأيام تنتحرُ
وفي مخيلتي أمرٌ يمزقني ... ولستُ أدري بما يخفيه لي القدر
يجتاحني ألمٌ يجتاحني قلقٌ ... يجتاحني عاطفتي سرٌّ له خَطَرُ
ضاعتْ به كلُّ حالاتي ولستُ أرى ... بُدّاً من الصبر مهما طال بي السهرُ
المرءُ تحمُله أقدارُ حاضرِه ... ومنه تَنتزعُ الإبداعَ أو تَذَرُ
مهما بذلتُ من التفكير في زمني ... لن يُجْدِ ذلك شيئاً قد مضى الخبرُ
فلْأَسْتَمِرَّ عسى الأحداثُ تُنضجني ... فالمرءُ في قمةِ الأحداث يَنتصرُ

وبين العواصف النفسية وقعتُ على لون جديد من الطلب يربط بين المعرفة وتوظيفها ، فانصهرتُ بطاقتي بين الأقران ، في مجال التنافس والتفاضل ، واشتركتُ في الحلقات وفي الدورات والمحاضرات ، وتكمنتُ بوعي وإدراك ، وناقشتُ بشغف ورغبة، وجمعتُ ومحصت

ُ، وعلقتُ ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا ، ولكن القلقَ أخذ يَتَّسِم بالمد والجزر ، ينخفض حيناً ، ويرتفع حيناً آخر ، حتى يكاد يعصف بي ، مع إدراكي لما حولي من حق وباطل ،

وفي غمرة من غمرات المحاسبة ظهر لي أمرٌ كان خافياً أو كان محاطاً بغشاء رقيق ،

غمرني فجأةً وأشرق في ذاتي وقادني إلى طريق لمستُ فيها ملامح الأمان وفوحة النور ، ومتعة النفس الحائرة ، وبين البحث عن هذا اللون المضيء في مكتبة والدي العزيز وجدتُ الإمام الغزالي حجة الإسلام في أكثر من رف ومكان ، وعهدي بهذا الإمام منذ أن كنت صبياً أقرأ كتابه (بداية الهداية) في بعض الحلقات التي كان يقيمها والدي في المسجد ، واستأنستُ لعرضه الصادق وأسلوبه المشرق ، بفطرة الصبي الفج ، ولكني نسيتُ كل شيء في غمرة المعركة المعرفية اللاحقة لهذا العمر ، وظل هذا الإمام يتعهدني في بعض المواقف المرتبطة بكتاباته وآدابه المعروضة في(بداية الهداية) ، أو أستمع إلى ذكره من لسان أبي وهو يشيد به ويأمر طلابه بقراءة كتبه ،

والجوهرة لا تبلى ولا تفنى ولا تسقط في سوق العرض والطلب إلا إذا سقط ذوق الناس ،

ومصنفات (حجة الإسلام) كلها جواهر ، تظهر مشرقة كالشمس في هذا العصر الوبيء ، المغرق في الماديات إغراقاً بهيمياً ، وقد وقعت يدي بعون الله وتوفيقه على جوهرة من جواهر الإمام ، فوجدت نفسي منقاداً إليها إنقياد الطائع المريد ، فاجتمع في نفسي شوق للعرض والتناول منها وإليها ، فبدأت أضع ملاحظاتي وكلماتي حتى تكونت وريقات متواضعة ، سميتها :

سِيَاحَةٌ نَفْسِيَّةٌ فِي رَسَائِلِ الإِمَامِ الغَزَالِيّ

وأدر كت حينما كنت أجمعها أن واجبي كشاب مسلم أن أقول ما اعتلج في ذاتي نحو ديني وعقيدتي.

فشباب المسلمين اليوم وغداً عليهم واجبات كبيرة تجاه هذا الدين الحنيف ، وبتعرفهم على منهاج تربوي إسلامي متفرد. يستمد تجربته الصرفة من روح الإسلام وتعاليمه يختصرون الطريق ويجدون البغية في مثل مجموع (الجواهر الغوالي) ، والذي يضم عدة رسائل هامة تحتوي على أسس تربوية ونفسية استنفذت من الإمام وقتاً وجهداً حتى جاءت ناصعة مشرقة كالشمس في رابعة النهار.

وجدير بي كطالب للعلم ـ وكمدرس في المدارس الثانوية [1] ـ أن أبحث بروح المؤمن بالله عن خيط يوصلني إلى المقام الأسنى ، أقود فيه معي كل محب لهذا النور المبين ، «ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين» ، ويدي على يد كل طالب للمعرفة من روافدها المشرقة الفياضة ، إلى رحلة سياحية ، في رسائل الإمام الغزالي .

المؤلف

(١) كان المؤلف حينها في عدن مدرِّساً في المدارس الثانوية ومنتدباً للجامعة .

كِيمِيَاءُ السَّعَادَةِ

الرسالة الأولى

(**حجة الإسلام**) لا معنى للّقَلَب إذا لم يكن صاحبه يمتلك الشروط الكافية المؤهلة لإطلاقه عليه ، فالحجة هي (قوة الإقناع) ، بحيث يستطيع صاحبها أن يُخرسَ المعارضة بالحجة والدليل ، والتاريخ الإسلامي قد عرف رجالاً من الباحثين والفقهاء والدارسين ووهبهم ألقاباً متعددة ، منها ما يتلاءم حقاً مع مقام الرجل المقلَّد ، ومنها ما قَلَّدُ به مجاملةً أو أثراً عاطفياً ساد موقفاً من موقف العصور تلك .

ولست هنا في مقام الناقد للألقاب الإسلامية ، وإنما في مقام وضع رأيي المتواضع فيما يتعلق (بحجة الإسلام) ، لقد كان هذا الإمام (حجة) ولاشك ، ليس لأنه مَلَكَ عواملَ الإقناع لبني عصره ، وإنما لأنه استطاع أن يُثبت قوة الإقناع والحجة حتى اليوم ، إذ يبث في نفس الدارس قوةً غريبةً يستمدها من قوة الإمام وصموده وصبره في مجال العلم والطلب ، ولقد أنصف الباحثون هذا الإمام ، وتناولوه من جهات عدة ، ولكن النهر يمنحك العطاء حيثما نزلتَ منه وحيثما وقفتَ ، وها نحن معه في منهاج نفسي روحي يقول :

مـعـرفـة الـنـفـس

قال الإمام الغزالي :

اعلـم أن مفتـاح معرفـة الله تعالى هـو معرفة النفس ، كما قال سـبحانه وتعالى: {سـنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} ، وورد في الأثر : (من عرف نفسه فقد عرف ربه) .

وليس شيء أقرب إليك من نفسك ، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك [1].

قلـتُ : يتحـدث الإمام عن توظيـف العلم في معرفـة الحقيقة الأزلية ، التعرف على عظمة الخالق من خلال التعرف على الذات . إن علم النفس الإسـلامي كمـا يراه الغزالـي علماً غير مرتبـط بأثر الغرائـز ، بل يرى أن الدوافع الأولية والثانوية ليسـت سـوى نزعات يمكـن كبحها وترويضها وعدم الانقياد لها .

قال : **لقد جمعتَ في باطنك صفاتٍ منها صفات البهائم ، ومنها صفات السباع ، ومنها صفات الملائكة ، فالروح حقيقة جوهرك ، وغيرها غريب منك ، وعارية عندك .**

فالواجـب عليك أن تعـرف هذا ، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة ، فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح ، فإن كنتَ منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج [2].

---

(١) معرفة النفس-الجواهر-ص٧-الطبعة الأولى .

(٢) هـذا ماوصل إليـه عالم النفس النمسـاوي (فرويـد) إذ جعل الجنس هو أسـاس الدوافع.

وسعادة السباع في الضرب والفتك ، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل ، فإن كنتَ منهم فاشتغل بأشغالهم .

وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال حضرة الربوبية ، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق [1] ، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية،وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال ، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب [2].

قلتُ: الإنسان في التربية الإسلامية هو من يتصرف بقوته النفسية ضد رغباته ونداءاته ، والأسرة المؤمنة ، من تنمي صغارها على كبح الرغبات الجسدية ، وتغرس فيهم حب الخير والعمل من أجل الخبر (مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع).

(ورضا الله في رضاء الوالدين ، وسخطه في سخط الوالدين) ،

(الجنة تحت أقدام الأمهات).

وتموت عند تطبيق هذا المنهاج بصورته الحقيقية كل النداءات الجسدية المُصِمَّةِ للآذان ، وتظهر على السطح نبت النبوة السمحة ، تربية سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ النبي الذي نشأ تحت العناية الإلهية ، «أدبني ربي فاحسن تأديبي» .

---

(١) الملائكة مثال أسمى للصفاء والطهر والنورانية ، وهو المسلك الجديد الذي دعا الإسلام إلى التصاعد فيه قدر الطاقة ، (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) ، وهو المنهاج الذي يجعل الإسلام متفرداً عن بقية الدعوات والأفكار ، ويصبح به المسلم أنموذجاً وسطاً غير مفرط ولا مفرط .

(٢) معرفة النفس ، كيمياء السعادة ص٧.

ولَأَنْ أَتَسَـامى وأخطو في طريق هذا النبي الكريم خير لي من أن أنحدر في مضيق فرويد وأشباه فرويد ، وعلى طريق النبي الكريم يتحدث الإمام عن الصفات المختلفة المركبة في الإنسان فيقول:

(**وتعلّم : أن هذه الصفات لأي شيء رُكِّبتْ فيك ، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها ، ولكن خلقها حتى تكون أسراك ، وتسخرها للسفر الذي قدامك ، وتجعل إحداها مركبك ، والأخرى سلاحك ، حتى تصيد بها سعادتك**)[1].

قلت:ولعل الإمام وهو يستعرض أسس منهاجه النفسي كان يعلم أن هناك من لا يأنسون بطبعهم إلى الخير ، ويتطلعون بكل أدواتهم لطمسه وتلويثه ، وخلق المبررات والادعاءات التي يدفعون بها عن أنفسهم ونزعاتهم الدنيئة ، فيقول : (**فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور ؛ لأن الحق يكون عنه محجوباً** [2]).

قلت: يا للعجب ، ماذا سيقول عن هذا المنهاج أصحابُ النظريات الحديثة؟ هل سيقولون : إنه منهاج قاصر الرؤية ؟! منهاجٌ بُني على أسس غيبية ؟! منهاج لم يرضخ للتجربة العلمية كما رضختْ أبحاث فرويد وبافلوف وتورنديك وووورث ربما يقولون ؟! وربما يقولون أكثر من ذلك ، وهم معذورون لأن (كل إناء بالذي فيه ينضح)!

وهذا هو المنهاج الذي نضح به صدر حجة الإسلام ، فالإناء ممتلىء علماً وتجربة وصدقاً وضميراً حياً ، وحباً للعدل وأهله ، ثم هو يتحدث

---

(١) كيمياء السعادة ، ص٧.

(٢) كيمياء السعادة ، ص٨.

من العلم الذي وصل إليه بطريق المعاناة والمكابدة ، والرحلة في طلب المعرفة ،وجمع الأسباب الموصلة إلى حل المعادلة الصعبة في مجتمع كان أشبه ما يكون بمجتمع اليوم في طغيان الماديات على الروحيات ، وارتفاع طبول الحذلقة والفسطة وهدم الإيمان بصور عديدة ، فِرَقٌ متناحرة ، عصبيات شعوبية ، مجون وخلاعة ، دخل ونحل على صلب الدين الحنيف ، وغير ذلك من الوسائل المنتشرة آنذاك ،

ويردد الإمام عبارته مرة أخرى فيقول : (**فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور ؛ لأن الحق يكون عنه محجوباً**) .

قلتُ : قشور .. حُجُبٌ عن الحقيقة.. هذه هي وجهة نظر الإسلام حتى مع العلماء ، (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم).

ولسنا هنا في مقام التفضيل بين المناهج ، ولكن في مقام لمنهاج الإمام الغزالي المستمد من الدين الإسلامي ، مع عدم إغفال المناهج للدور العلمي الكبير الذي أدته وتؤديه مدارس علم النفس الإنسانية على ما فيها من مآخذ ،

والإمام « حجة الإسلام » يضع للمسلمين فلسفةً نفسيةً على أساس من النقاء والطهر ، مع عدم إغفال طبائع البشر الوضعية في الميل الظلم والجريمة والدعة والمجون ، وإنما يأخذ بأيدي هؤلاء ويهديهم للأسباب المنقذة لهم من الوقوع في الموبقات ، ويبحث عن أعماق النفس عن تركيبها الخفي ومواصفات تزكيتها ،

يقول : (**إنك مركب من شيئين ، الأول هذا القلب ، والثاني يسمى- النفس والروح والنفس هو القلب الذي تعرفه بعين الباطن وحقيقتك**

الباطن لأن الجسد أول وهو الآخر ، والنفس آخر وهو الأول [1]) .

القلب والنفس والروح

يقـول الإمام : (والنفس هو القلب الذي تعرفه بعين الباطن ، وحقيقتك الباطن) .

قلـت : الإمام لا يجعل من الجـوارح الظاهرة وأفعالها المباشـرة وغير المباشـرة حقيقـة الإنسـان ، ولكن الحقيقة هي في الباطـن ، والنفس ، والروح : القوة التي تحتار فيها كل الخلائق العاقلة ، القوة الغريبة في هذا الهيكل المتناسـق ، والذي يصبح جثة هامدة لا حراك فيه سـاعة أن تولي عنه إلى عالم آخر .

والنفـس أو الروح لا شـك أنها حبيسـةٌ في هذا الجسـد الأرضي طول حيـاة الإنسـان ، ولذلك فلابد من قوة تقـوم بدور المنبـه والمهذب لهذه النفس الحبيسة ، تكون هذه القوة تحت إمرة الإنسان ذاته.. إنها العقل.

يقـول الإمـام : « وقد أُمر ابن آدم بأن يكشـف ظلم الجهـل بنور العقل خوفاً من الفتنة ، كما قال النبي صلى الله علية وسـلم « ما من أحد إلا وله شيطان ، ولي شيطان وإن الله قد أعانني على شيطاني حتى مَلَكْتُهُ»[2].

قلتُ: ظُلْمُ الجهل / نور العقل / خوف الفتنة / الجهلُ ظلامٌ / العقل

---

(١) كيمياء السعادة ، ص٨.

(٢) كيميـاء السـعادة ، ص١٣ وجاء فـي روايات أخرى بلفظ ولكـن الله أعانني عليه فأسلم أهـ .

نورٌ / الفتنة سبب الشرور .

والرسول ﷺ بسطوع نور العقل المسدد من عند الله استطاع أن يمتلك زمام الشيطان الموكّل به .

إذن ما هو هذا النور؟ أهو العلم والمعرفة ؟

إن الرسول ﷺ لم يكن من أهل العلم المقروء بمكان[1] ، لكن كثيراً من العلماء لا نجدهم إلا إلى الشر والإثم أقرب ، رغم علومهم ومعارفهم ورجاحة عقولهم .

إذن فنور العقل لا يعني أمراً مكتسباً يجمعه المرء خلال تجربته المعرفية،

ولكنَّـه نُـورٌ مِـنَ اللـهِ واردٌ   أتىٰ ذِكْرُهُ في سورة النورِ فاستقرِ[2]

وهذا النور المقذوف في قلب الإنسان لا يظهر مصادفةً ولا عرضاً ولكن له أسباباً وظواهرَ، منها المجاهدة للنفس ، والتسامي فوق الذات البشرية ورغباتها الحيوانية ، والالتزام بالشريعة .

أما العلم ، فهو مجرد وسيلة ، إما أن ترفع صاحبها إلى هاوية الضلال السحيق .

وأما الجهل ، لا يعني الأمية بمفهومنا ، ولكن الجهل هنا أمر آخر ، إنه السَّفَه ، وغمط الحق رغم معرفته ، والغشاء الحاجب عن العقل العالم نورَ الحقيقة .

ربما يكون الرجل عالماً فيزيائياً ، أو كيميائياً ، أو طبيباً ، أو فيلسوفاً ، أو غير ذلك ولكنه مع ذلك (جاهل) ، لأن علمه ومعرفته كانت وسيلة

---

(١) {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم }

(٢) ديوان الإمام الحداد.

شـر على نفسـه يخفي حقيقة العلـم رغم أنواره ، من أجـل مكانة دنيوية ، ومن أجل شهرة في عالم المعجبين ،

رجل يمتلك العلم الكفيل بكسـر حواجز الوجود ليتعرف على الواحد المعبود ، فيستعمله لخدمة ظلم الجهل ، والفتنة ، في حالة سببية يصاب بها العالم المفتون الغرق في إطار نظر قصير ، يفكر بما يسعد ذاته ، يلبي رغباتـه ، يمنحـه العسـادة الصورية والرضا ، حتى لـو كانت ضريبة ذلك مسخ العقل والضمير..

ينبهـر بما يرى ، يَشْـرُقُ بما يبحث ، يتـوه في عالم الملكوت المتباعد ، فينقلـب إليـه البصر خاسـئاً وهو حسـير ، وتنتفـخ الأوداج فينطلق في سـرد أحوال الأبراج والسدم والأفلاك وكأنه الذي صنعها ونظمها ورتب مسيرتها ، ويجعل من سرد المعلومات عنها برهاناً للإلحاد .

وينسـى أنه لم يفعل شيئاً سـوى أنه علم بها ، ولاحظ نشاطها ، ورصد بوسائله آثارها ، رغم وجودها منذ الأحقاب الطويلة ، وعلمها عند ربي ، من قبل ومن بعد .

نحن والرسول سـواء في البشرية ، ولكن المجاهدة والمعاناة والعناية الربانية كانت على موعد مع هذا الجسد الشفاف المرتاض برياضة النفس الملهمة أربعين عاماً ، ولذلك يقول ﷺ : (ما من أحد إلا وله شـيطان ، ولي شيطان وأن الله أعانني عليه فأسلم) .

الشـيطان : قـوة خفيـة ، يجري من ابـن آدم مجرى الدم يسـخر الغرائز لطمس نور العقل ، لإثارة الضباب على صفاء النفس البشرية ، فيتلوث الجو ، وتظلم الرؤية ، وتيخبط الساعي ، ويقع في المحظور .

أسلم شيطان الرسول ﷺ ، # فكان بذلك أول قائل لبلال: (أرحنا بها يا بلال) ، ويقول: (وجعلت قرة عيني في الصلاة) ، وذلك مقام النبوة ،

ولكن الظواهر تدل على النتيجة ، الرسول منذ أن عرف نفسه وهو يبتعد عن الشر حتى دخل دائرة الخير الواسع والفيض الإلهي ،

سعيه إلى الخير حباً غريزياً فيه ، فكانت نتيجته أن اصطفاه مولاه للأمانة الكبرى ، والرسالة السماوية ، إذن فالارتياض على الخير يفتح للعقل باباً من النور ، يبعده عن أبواب العقل الجاهل ،

ومن الضرورة بمكان أن ينفتح للمرتاض باب في عالم الإشراق ، كما انفتح لأولئك الرجال الذين عرفهم تاريخ الإسلام ، وقد تناول الإمام هؤلاء وتناول الوسيلة الموصلة إلى النتيجة المنهجة فقال : « **ولا تظنن أن هذه الطاقة[1] تنفتح بالنوم والموت فقط ، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة ، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة ، فإذا جلس في مكان خال وعَطَّلَ طريقَ الحواس ، وفتح عين الباطن وسَمْعَهُ ، وجعل القلبَ في مناسبة عالم الملكوت ، وقال دائماً: (الله.. الله.. الله..) بقلبه دون لسانه ، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ، ولا من العالم ، ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى انفتحتْ تلك الطاقة[2]**.

قلت: يا تُرى هل مثل هذا الاستغراق يعطل قوة الإنسان ويمنعه عن العمل ؟ يصرفه عن الحياة ؟ # كما عبر عن ذلك الكاتب الفلسطيني

---

(١) الطاقة يقصد بها هنا القوة المبينة للإنسان حركة الملكوت وقوانينه على أساس الإيمان المطلق بالله تعالى ، واعتبار كل تعليل من التعاليل العلمية هو مجرد سبب فقط يجلي التدرج المعرفي للباحث ؛ ولكن المحرك الأساسي هو الله.

(٢) هذا هو المقصود# بمقام الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، والمقصود هنا بالرؤيا المراقبة وصدق الشهود.

«غسان كنفاني» في قصته المعروفة «رجال تحت الشمس»: هم هكذا يعتقدون ، أو هكذا يزين لهم الشيطان ، أَمَا هُم قد اتهموا شهر رمضان بأنه يعطل الإنتاج ؟! مع أنهم يعرفون تماماً أن هناك من هم معطِّلون للإنتاج طول الحياة في رمضان وفي غير رمضان ، ومن صام رمضان عن صدق وإيمان حاشا أن يكون أداة تعطيل ، وإنما هو أداة زيادة وأمانة وتفان ، فمن خشي ربه وعمل صالحاً سيعمل الخير لغيره حباً ورضاً . اهـ.

"ولذلك فالاستغراق في مجاهدة النفس ورياضتها لتصل إلى معرفة خالقها ليس تعطيلاً ولا ضعفاً ولا انهزاماً" كما عبر عنه زكي مبارك في كتابه (التصوف الإسلامي) ، بل إنه سموٌّ وعلوٌّ وتربيةٌ إسلاميةٌ صِرفةٌ ، والمسلم الصادق في إسلامه وإيمانه لابد أن يتطلع لهذا المنهاج التربوي ويتدرج فيه قدر طاقته وجهده «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» ، ولا نقصد هنا بمنهاج الإسلام التربوي رضا فئام الناس أو رضى علماء العصر الحديث من شرقيين وأشياعهم ،

وإنما ندعو كل مؤمن صادق يدرك مفهوم التفرد في منهاجه الإسلامي ، كما دعا لذلك علماء وقادة المسلمين الروحيين المخلصين في غابر العصور ، لا دعوة السياسيين المرتبطين بالمصالح الدنيوية الصرفة، مع إشارتنا إلى ضرورة التعرف بوعي على ما قد يدخل إلى ديننا ومنهاجنا من أعدائه في القديم وفي الحديث ، عبر مساقات التسييس والتبادل المعرفي .

إن منهاج علم النفس الإسلامي يربي النفس لغاية شريفة وعالية يرفعها من حضيض الهوى إلى سمو الإنسانية ، إلى بؤر العقل المقيد بالشرع ، إلى نور الله ، «يهدي الله لنوره من يشاء» ومن ظن في نفسه صدق

المنهـاج الـذي يتبعه فعليـه أن يعرضه على هذا المنهاج النفسـي التربوي ليعـرف مقامـه مـن دينـه وإيمانه ، لقـد كان في حيـاة نبينـا الكريم رجال عديـدون يحومـون في دائـرة الإسـلام درءًا لدمائهـم وأعراضهـم وطلباً لتحقيـق مصالحهـم وأغراضهـم ، ولكنهم بعيـدون كل البعد عن منهاج الإسـلام الحقيقـي ، {يخادعـون الله والذيـن آمنوا ، ومـا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون } .

ولذلـك فقد حـدد القرآن منهم موقفاً ووصفهم وصفـاً دقيقاً يؤكد على مدى ما كان لهم من أثر على الناس وعلى الرسـول «وإذا رأيتهم تعجبك أجسـامهم وان يقولوا تسـمع لقولهم ، كأنهم خشـب مسندة * يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون» .

لاشـك أنهـم متحذلقون ، يملكون قدرات بارعة في الاسـتحواذ على المستمع ، (وإن يقولوا تسمع لقولهم) ويملكون أيضاً شخصيات جسدية (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم).

ولكن المنهاج الإسلامي النفسي والتربوي لا يحكم على هذه المظاهر ، وإنمـا علـى التركيـب الداخلـي للإنسـان ، وهذا هـو المنهاج السـليم الـذي حملـه المسـلمون الأوائل إلى مشـارق الأرض ومغاربهـا ليجتاح كل ماديات الفرس والروم ، وليرسـي أسسـاً جديدة على مناحي الحياة الاجتماعيـة والاقتصاديـة ، والسياسـية ، إلـخ ، إنها قـوة الإيمان بالله ودينه ، قوة الثبات في مجاهدة النفس أمام المغريات .

إن المسـلمين فـي حروبهـم المتعـددة مـع أعدائهم لـم يتفوقـوا لكثرة عددهـم وعدتهـم ، وإنمـا لتقواهـم ومجاهدتهم رغباتِهم وشـهواتِهم ، وكانـت تلك علـة الهزيمة للمشـركين ، فهـم غارقون في عبـادة الذات ،

عاكفون على اللذات والشهوات، لا يبصرون أكثر من إبصارهم ما يشبع الجوع والظمأ في الجسد، وما يحقق المال والجاه في المجتمع. واجتاح المسلمون الصادقون مسلكاً وسلوكاً كل هذه المظاهر الجوفاء ليحققوا للعقل الإسلامي مكانته في الحياة.

وخير دليل على قوة الكيان الإسلامي رسالة عمر[1] العسكرية إلى سعد بن أبي وقاص، والتي تعد مرجعاً صحيحاً وصورةً حقيقيةً للتغير الواضح في المنهاج الإسلامي قياساً بغيره من مناهج الأمم، قديمها وحديثها.

وقبل أن أغلق المصراع على سياحتي الأولى في [كيمياء السعادة] للإمام الغزالي فإنني أضع الأثر الإسلامي المعروف نصب عينيّ، مبدأً دائماً ودستوراً لازماً لن نبلغ إلى ما نصبو إليه إلا به، وهو «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» كما قال الإمام مالك.

وما هذه المأساة التي يعيشها المسلمون في عالمنا الإسلامي والعربي إلا نتيجة الاغتراب عن المنهاج الصحيح، المنهاج الذي يؤكد القرآن على جدواه في إعادة الحياة الرغيدة لبني البشر (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون).

إن كل ما أصابنا هو نتيجةٌ طبيعيةٌ لمسلكنا.. للطريق الذي اخترناه لأنفسنا.

ولن يجدي لَهَثٌ وراء أولئك ولا وراء هؤلاء، لأن منهاجَهم بعيدٌ عن منهاج الإسلام، ولذلك فنحن في خيار: إما أن نتبع من سلف،

أو أن نخطو في طريق هؤلاء الأدعياء ونكون أبواقاً لغيرنا بلباس الإسلام والإيمان، وتطول بنا رحلة الاغتراب شئنا أم أبينا.. «إن الله

---

(١) عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما في بأنفسهم» ، «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

إن علينا أن نعود لننظر في أمرنا ونعالج حالنا ، ولا أشك أن لدينا مقدرةً ماديةً وروحيةً ، وأساساً راسخاً للتشريع والتقنين ، ونعيد الوجه الإيجابي يشرق بنور الله على العالم ، ويخفت به من جديد صوت الرغبات الجسدية وندآءات الفسق والفجور والكفر والزندقة والإلحاد وتسييس المبادىء والأديان.. وإلى الأبد..

ويشعر بالغثيان كثير من القراء الذين رغبوا حياة معينة ، وارتاحوا في ظل الانطلاق اللامحدود يستمتعون ويمتعون ، فبين مؤيد ومعارض.. وبين موافق ورافض.. وبين صامت ومحلل.. يتناولون ما نقول.. ولماذا قيل ؟ وما هي جدواه ؟ وأين هي الحقيقة الصرفة التي يتحدث عنها ؟

وأخيراً : يغلقون الكتاب ويضعونه في أفضل الأحوال على الرف ، إن لم يرمَ في المزبلة ، ويقولون لقد كان مؤلفه رومانسياً خيالياً (طوباوياً) ، لم يغص في المقلاة # ، ولم يعش الواقع ، وليظل أثراً بعد عين ،

الرِّسَالَةُ اللَّدُنِّيَّةُ

الرسالة الثانية

أ- العلم اللدني ، والعلوم المكتسبة

قال الغزالي : **(العلم) تصور النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المراد بأعيانها وكيفياتها وكيماتها وجواهرها وذواتها إن كانت .**

(والعالم) هو المحيط المدرك المتصور ، و(المعلوم) هو ذات الشيء الذي ينتقش علمه في النفس [1] .

قلتُ : بهذا التعريف العلمي المترابط يضع الإمام مدخله إلى التفصيل بين العلم اللدني والعلوم المكتسبة .

وليس المقصود باللدني هو الموهوب بالوراثة ، أوكما يسميها علماء النفس اليوم الاستعدادات الفطرية ، وإنما يقصد به العلوم التي يقذفها الله في قلب من يختصه من عباده ، كالأنبياء والأصفياء والأولياء ، وهي علوم في جوهرها وشكلها ذات بعد خاص تؤدي دوراً في تثبيت الشريعة وفهم مقاصدها ، ولكنها قد تختلف عن العلوم التي نألفها اليوم ، لأنها لا تعتمد على قياس ولا تجريب ولا مقارنة ، بل تعتمد على ارتياض روحي معين ، ونبذ لكثير من شروط العلم الظاهر، واهتمام بتنقية الباطن وإجلائه ، ليشهد شؤونا بالحس أكثرمن الرؤية المباشرة .

---

(١) الرسالة اللدنية ص (٢٠) .

ولذلك يرى الإمام أن للعلم شرفا فيقول : « **شرف العلم على قدر شرف معلومه ، ورتبة العالِم تكون بحسب رتبة العلم** » .

وحديثه هذا لا يقتصر على العلم اللدني وحده ، وإنما يحتوي على شرف كافة العلوم ، ولكنه يرى أن العلوم المكتسبة هي علوم من الدرجة الثانية ، أي : إنها وسيلة للحياة وليست غايتها ،

وإنما العلم الحقيقي الذي يعد من أشرف العلوم وأجلها وأكملها هو (علم التوحيد) ، وهذا العلم ضروري وواجب تحصيله على جميع العقلاء [1] ، والمعترض على هذا الرأي المستقيم إنما لم يعرف من العلوم سوى ما تصورته نفسه الناطقة المطمئنة إلى الملموس تجاه العين المجردة .

ويفسر الإمام حجة الإسلام أحاديث الرسول ﷺ الواردة في الحث على العلم الموصل إلى علم التوحيد ، معتبِراً أن كافة العلوم المكتسبة يجب أن تكون مُعِينةً على التوحيد «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» رواه ابن ماجه.

والعالِم الذي يكون هذا سبيله هو أفضل العلماء ، فالتوحيد هو أساس العلوم ودليل الإمام على ذلك قوله تعالى : «فلله الحجة البالغة» . «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم» .

فعلماء التوحيد بالإطلاق هم الأنبياء ، وبعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء .

وهذا العلم-أي: علم التوحيد-وإن كان شريفاً في ذاته كاملاً في نفسه فهو لا ينفي سائر العلوم ، بل لا يحصل إلا بمقدمات كثيرة ، وتلك

---

(١) الرسالة اللدنية ص٢٢.

المقدمات لا تنتظم إلا من علوم شتى [1] .

وبناء على ذلك فكل علوم الحياة بذاتها مطلوبة ، ومرغوب للمرء أن يتعلمها ويطلع عليها مهما كانت في مستوى نظره (سيئة) أو (غير صالحة) ، لأنها ضد الجهل ، والجهل ظلمة و العلم نور .

والإمام يدلل على ذلك في قوله : **فاعلم أن العلم شريف بذاته وان كان باطلاً وذلك أن العلم ضد الجهل والجهل من لوازم الظلمة ، والظلمة من حيز السكون قريب من العدم ، ويقع الباطل والضلالة في هذا القسم** [2] .

فالعلم أشرف من الجهل ، فإن الجهل مثل العمى والظلمة ، والعلم مثل البصر والنور ، (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور) ، (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [3] .

قلت : إذن فوقفةٌ مع الإمام في هذا المقام تكاد تكون ضرورة خصوصاً في عصرنا اليوم ، حيث اتجه الكثير من الناس إلى حرمان أبنائهم من شرف العلوم لأسباب ومبررات تافهة القياس ، فالإمام ذاته لم يبلغ ما بلغ إليه من المعارف والعلوم إلا بعد أن شرب من كل منهل ووقف على كل علم في حياته وعصره .

---

(١) إشارة واضحة إلى علوم الحياة ، وبأنها مجرد وسيلة لمعرفة العلم الأسمى ، والغزالي هنا يجعل من كافة العلوم وسيلةً للتعرف على علم التوحيد.. لقد وصل الإمام إلى المقام بالتدرج في شتى العلوم ، والمتابع بتمحيص لحياة الإمام يجد أن تجربته أثمرت هذا اللون من التفرد في تحليل العلوم نتيجة المعاناة الصعبة التي مر بها .

(٢) الرسالة اللدنية ص ٢٢ .

(٣) الرسالة اللدنية ص ٢٢ .

لقد عبر هو عن نفسه في كتابه (المنقذ من الضلال) بقوله : «**ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقتُ البلوغ قبل العشرين إلى الآن وقد أناف السنُّ على الخمسين ، أقتحمُ لُجَّةَ هذا البحر العميق ، وأخوض غماره خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مُظْلِمَة ، وأتهجّم على كل مشكِلة ، وأَتَقَحَّمُ كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كلِّ فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنِّنٍ ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأنا أحب أن أطَّلِع على بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فسلفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأترصَّد إلى ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسرار جرأته في تعطيله وزندقته**[1]».

وعلى هذه القاعدة العلمية الجريئة تحدث الإمام عن غاية العلوم بعد أن محَّص سبلها وطرائقها ، محدِّداً الأسس التي لابد أن ينهجها المتعلم

---

(١) المنقذ من الضلال ،

وفي هذه التجربة ما يميز الإمام في دعوته عن غيره ، فهو يتحدث عن تجربة ومعاناة ، وبذلك يبين أثر العلوم التي يختبرها الإنسان ويتعرف على مكامن قوتها وضعفها ، حتى يستطيع بفضل الله أن يدحض ما قد يفترى على دين الله فيها ، وأعتقد أن اقتداءنا بالغزالي في منهاجه المعرفي وسيلةٌ جيدةٌ لكسر الطوق المفروض على طلاب العلم ، بأن لا يدرس إلا معارف مقننة ومختصرة في تخصصات وفروع محددة ، بحيث يتخرج الشاب بعد مرحلة دراسته متخصصاً في فرع معين دون أن يتعرف على جوانب هامة في حياته المعرفية ، فيصير بذلك آلة بشرية لاحول له ولا قوة غير الارتباط بفرع صناعي أو إداري أو غيره ، يدور ويحور في هذا الفلك بأطر ومفاهيم ضيقة .

أو العالم # فيقول:

وللعالـم فـي طلب العلم طرق عديدة نذكرها فـي فصل آخر ، والآن لا يتعيـن عليك بعـد معرفة فضل العلم إلا معرفة النفس التي هي لوح العلوم ومقرهـا ومحلهـا ، وذلـك أن الجسـم ليس بمحـل للعلم ، لأن الأجسـام متناهية ، ولا تسع كثرة العلوم ، بل لا تحتمل إلا النقوش والرقوم ، والنفس قابلة لجميع العلوم من غير ممانعة ولا مزاحمة ولا ملال ولا زوال [1].

يرى حجة الإسـلام النظرية الإسلامية الحقيقية من زاوية مفاهيم الدين الحنيف ، فالعلم لا يعنى أن نتعرف على موجودات الحياة وأساليبها فقط ولا علـى اللغـات وأنواعها ، ولا على هـذا وذاك ، وإنما العلم الحقيقي في فلسفة الإمام المسلم المؤمن أن تتعرف على نفسك وتهذبها وتصقلها بالعلوم ، أن تكون وعاء نظيفاً لطيفاً يسـخر هذه المعارف إلى ما خلقت له النفس من الخير والسعادة والبذل وصنع الأفضل المتطور دائماً .

أما الذين تفسُـدُ نفوسُهم وتَسْـوَدُّ بذلك أخلاقهم وأمزجتهم فعلمهم لا يعد إلا وبالا عليهم وعلى غيرهم ؛ لأن نداء الجسـد في نفوسـهم قد علا وطغـى ، والأجسـام كما يرى الإمام متناهية ولا تتسـع كثـرة العلوم بل لا تتحمل إلا النقوش والرقوم [2].

إذن فالعلم في منهاج الإسلام له شرف ومكان أوسع وأشمل ،

---

(١) ص٢٣ الرسالة اللدنية ، ولا شك أن للتخصص مكانة في علوم الحياة المعاصرة ، ولكن التخصص لا يتأتي إلا بعد وضع قاعدة معرفية مساعدة على سياحة عقل الشاب في كافة المعارف اللازمة والضرورية لحياته الدنيا ولآخرته أيضا ، أي : أن يتخصـص بعد أن يحدد اتجاهه العقائدي اتجاهاً صحيحاً لأن التوحيد ينبني على الأخذ من العلوم .

(٢) الرسالة اللدنية ص٢٣.

والمتعلم للعلوم في سياسة الإسلام التربوية لابد أن يوظف كل ثمار نشاطه العقلي والجسمي لخدمة حياته (الدنيا والأخرى) ليصبح كلُّ نشاطٍ عبادةً.. كل نشاط يربح فيه المرء أجر الآخرة وأجر سعادة الدنيا.. هذا ما يفرق بين طالب علم الدين الإسلامي وطالب العلوم الأخرى بمنهاج الحضارة الأوروبية.

هنا يمكن التفرد في التربية الإسلامية ، فطالب العلم المؤمن بالمنهاج الإسلامي يجعل من طلبه للعلوم وسيلة ، يتقرب بها إلى الله ، وهذا يعني أنه سيراقب ربه قدر استطاعته حتى لا يكون طلبه للعلم يضر بنفسه ويضر بغيره ،

إنه يتدرج في سلم الاكتشاف والاختراع والاطلاع ليصل إلى حقيقة غائية : معرفة الله في موجوداته ،

وهذا هو طالب العلم الذي قال عنه الرسول ﷺ : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع).. مقامٌ سامٍ ورفيعٌ ، أن يبلغ بالمخلوقات النورانية أن تتواضع له وترخي أجنحتها ، ليسير عليها طالب علم يبحث عن حقيقة الحياة وغايتها ،

لا يقف أمام اختراع فينبهر ، ولا أمام اكتشاف فيضطرب ، ولا تجاه تحضير لمُرَكَّبٍ جديدٍ فيلحد ، إنه ينظر في كل ذلك حقيقة واحدة ، وحدة الله ، تتراءى في وحدة خلقه [1] .. للعلم جلالٌ وهيبةٌ وتقديرٌ عند الخالق ، «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط» ،

العلم أساس الدين ومعرفته ، «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون». لن

---

(١) تعبير يردده الدكتور أحمد زكي في مقالاته بمجلة العربي .

يحصل إنذار إلا بالتفقه في الدين ، ولن يحصل التفقه إلا بتفرغ طائفة من كل جيل ومن كل أمة يسافرون في طلب المعرفة ويتزودون منها ، فالفقيه احتوى صدره على علوم عصره قبل أن يفتي ويعلم ويحكم .

والتفقة في الدين لا يحصر المتفقه على معرفة العبادات والمعاملات والحدود والجنايات والأنكحة والفرائض وعلوم التفسير والحديث .. لا... إن المتفقه من يكون أكثر من ذلك ، من يطلع على علوم عصره قدر الإمكان ، لارتباطها بالدين ، لكونها وسيلة توصل المتعلم إلى الغاية المطلوبة في منهاج التربية الإسلامية؛ لأنها تعلمه الوجوه المتعددة للحياة.. آراء الفلاسفة.. وجهات نظر المفكرين.. تجارب الأمم.. نتائج وثمرات الحضارة.. كل ذلك يصبح خلفية ثقافية تساعد المتفقه على أن يسبر أغوار الحياة ، ويتناولها مرتبطة بعلوم الدين الخاصة..

إذن وما شأن هذه العلوم التي ينظر إليها الشاب اليوم ؟

ألسيت هي أيضاً في خدمة الإنسان؟ أليست هي وسيلة لتطور البلاد المتخلفة لتصبح مواكبة لتطور العالم؟ قلنا: بلى.. هي حقا علوم في خدمة الإنسان ، وفي سبيل تطوره وبناء مستقبله؛ ولكنها لا تكون أكثر من ذلك ، إلا إذا كان المتعلم والمهاجر في سبيلها ينوي في قرارة نفسه أن يعرف ربه حق المعرفة كما يريد أن ينهل من موارد هذه العلوم .

والأجر في منهاجنا الإسلامي لايأتي بالهجرة وحدها ، ولا بالتغرب عن الوطن، وإنما يأتي من خلال النية ، من خلال الباطن ، من خلال ما تضمره النفس، وليس أدل في هذا المقام من حديث رسول الله ﷺ الذي قاله في موقف نفسي حاد : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر

إليه».

وإننا نرى اليوم في حياتنا كثيراً ممن يهاجرون في سبيل العلوم قد انحرفوا عن جادة الصواب ، وخرجوا عن الطريق القويم ، ويتطلعون بشغف لنشر وبائهم على بقية المحافظين في بلادهم.

إن كثيراً منهم يتغيرون في سلوكهم وتفكيرهم قبل أن يسافروا ، ولكنهم بعد عودتهم من رحلاتهم المختلفة يكونون أكثر قدرة على التحدي والاستهتار ، ويعيبون كل العيب على من ظل من الشباب مرتبطا ببعض آداب الإسلام وتقاليده ، زاعمين بأنها لاتتلاءم مع الحياة العصرية .

ولست أدري ماذا يقصدون بهذه الملاءمة؟! هل يقصدون بها الخروج عن دائرة الإسلام والإيمان لنصبح كَفَرَة؟! هل يقصدون التوليف.. بأن نجمع من هنا ونجمع من هناك لنكون كرنفالاً من الأخلاق والعادات؟!

هذا أمرٌ يُحير وخصوصاً عندما يكون دعاةُ هذا الإسفاف طليعة المجتمعات الإسلامية هم (المثقفين) كما يسمون أنفسهم ، وكما ألبستْهم معارفُ الحضارة هذا اللقب الفضفاض .

إنني عندما أعرض كل هذا الأمر المعروض على منهاج الإسلام الصرف أرى أن كل تلك الدعوات ليست سوى تبريرات لا تمثل في محتواها غير وجهة نظر مريضة غارقة في عبادة اللذة والجسد ، محجوبة عن حقيقة العلم وغايته الصحيحة .

ب - أصناف العلم وأقسامه

قسم الإمام حجة الإسلام العوم إلى قسمين :

- أحدهما شرعي ،
- والآخر عقلي ،

القسم الأول : العلم الشرعي .

وينقسم إلى نوعين ، أحدهما في الأصول [1]، وهو علم التوحيد ، وهذا العلم ينظر في ذات الله تعالى وصفاته، وينظر أيضاً في أحوال الأنبياء والأئمة والصحابة من بعدهم ، وينظر في أحوال الموت والحياة ، وفي أحوال القيامة والبعث والحشر والحساب .

وأهل النظر في هذا العلم يتمسكون أولاً بآيات الله تعالى من القرآن ، ثم بأخبار الرسول الله ﷺ ، ثم بالدلائل العقلية والبراهين القباسية [2].

هذه هي قاعدة النهج الإسلامي لعلوم الغيب ، والتي تعد مرتكزاً أساسيا في علوم الغيب بالعلوم التجريبية الأخرى ، فالإسلام منهاج متكامل وفكر شامل يستمد براهينه من القرآن أولاً ، ثم من أخبار الرسول ، ثم يأتي الدليل المنطقي والبرهان القياسي ، ونقطة الاختلاف في هذا المنهاج مع غيره من المناهج الوضعية بادٍ ولاشك ، فالمناهج الوضعية

---

(١) وهو النوع الأول من العلوم .

(٢) لم يَفُتِ الإمامُ هنا في هذا المقام أنَ يعلق على هذه الدلائل العقلية والبراهين القياسية ، وكيف دخلت إلى هذا العلم إذ يقول : (وقد أخذوا مقدمات القياس الجدلي والعنادي ولواحقهما من أصحاب المنطق الفلسفي ، ووضعوا أكثر الألفاظ في غير مواضعها ، ويعبرون في عباداتهم بالجوهر والعرض والدليل والنظر والاستدلال والحجة ، ،يختلف معنى كل لفظة من هذه الألفاظ عند كل قوم ، حتى إن الحكماء يعنون شيئاً آخر ، والمتكلمون شيئاً) . الرسالة اللدنية ص٢٨ .

لا تضع الكتب السماوية في المقام الأول ، لأنها في حالات عديدة لا تؤمن بها ولا تعدها سماوية ، وإنما ترضخها للقياس والبراهين العقلية الوضعية ، وتعتبرها في ذاتها منهاجاً أرضياً اتفق عليه الناس ، أو تفرد به رجال منهم سموا أنفسهم بالأنبياء.

وبما أن وجه الاختلاف كبير ومتباين فإن الإسلام في مصادره القويمة من كتاب وسنة قد تناول هذه الآراء المعارضة والبراهين والقياسات ، واعتبرها ضلالةً عندما تناول مسائل الغيب والإلهيات ، و وسيلةً عندما تتناول مسائل الحياة والمعارف العلمية .

ونحن أحرى بالاقتداء لكتاب الله وسنة رسول إذا كنا مؤمنين حقاً ، «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» ، «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» ، وبذلك نفهم نحن المؤمنين بمنهاج الإسلام أن كل ما يتناوله الحكماء والفلاسفة من تعليلات وتفسيرات للرسالات السماوية لا تزيد عن كونها آراء وضعية قاصرة تغري وتؤثر على من أضله الله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

ولا يجلو الغشاوة غير الإيمان المطلق بالرسالات السماوية ثم البحث من خلالها ومن أصل منهاجها السليم إلى معرفة حقيقة هذه الحياة وحركة كواكبها وكنه أسرارها ؛ لتهديه إلى الإيمان بخالق هذه الأكوان ، وتدفعه عن اقتناع وتسليم إلى عبادة الله وتقواه .

والإمام لم يترك مصادر العلوم الشرعية للعبث والارتجال ، وإنما تحدث بها كما جاءت ، فيبدأ بالحديث عن علم الأصول .

ومن علم الأصول التفسير ، فإن القرآن من أعظم المشكلات الكثيرة ما لا يحيط بها عقل إلا من أعطاه الله تعالى فهماً في كتابه [1].

---

(١) الرسالة اللدنيه ص٢٨.

والإمـام هنـا لا يضع التفسـير لكتـاب الله إلهامـاً فقط ، كما قـد يتبادر للمطلع على عبارته السابقة ، بل إنه يضع الشروط ،

وتعـد إشـارته آنفا إلـى أن الإحاطة بمضمـون القرآن لا يتأتـى إلا لمن أعطـاه اللـه فهمـاً ، ويعني بها وجـود الاسـتعداد الفطري لـدى الباحث متخلصاً من شوائب الغرض مخلصاً لله وحده ، إضافة إلى اطلاعه على العلوم النقلية والعقلية ،

(وإذا كان أمر القرآن أعظم الأمور فأي مفسـر أدرى#؟ وأي عالم خرج عن عهدته ؟ نعم كل واحد من المفسـرين شـرع في شـرحه بمقدار طاقته ، وخـاض في بيانه بحسـب قوة عقلـه وقدر كنه علمـه [1] ، فكلهم قالوا ، وبالحقيقة ما قالوا)

«وعلم القرآن يدل على علم الأصول والفروع الشرعي والعقلي».

(ويجـب علـى المفسـر أن ينظر فـي القرآن مـن وجه اللغـة ، ومن وجه الاسـتعارة ، ومن وجه تركب اللفظ ، ومن مراتب النحو ، ومن وجه عادة العـرب ، ومـن وجـه أمور الحكمـاء ، ومن وجـه كلام المتصوفـة حتى ، يقرب تفسيره إلى التحقيق)[2].

أمـا عندمـا يتنـاول الإمام الحديـث عن المصـدر الثاني للتشـريع وهو

---

(١) صـور حية من صور عقلية الإمام في رفضه القوالب والنصوص الجامده ، وحبه للتجديد والتطور على أسس ومعارف راسخه ونيات سليمة وطاهرة ،

(٢) الرسـالة اللدنيه ص٢٩ والإمام هنا يطلب من المفسـر أن ينظر في القرآن من كل تلك الوجوه ، ومع ذلك فقد يقرب يقرب تفسيره إلى التحقيق ، وهذا دليل آخر على دقة التحليل والتعمق لدى الإمام . كما إنه يدل على معرفة أولئك أن القرآن مرتبط بكافة العلوم ويجب على مفسـره أن يقلب كافة الأوجه الممكنة للخروج ببعض الصحة والرأي الصائب .

الحديث النبوي فيتناوله مفصلاً محللاً قيمته ، وأهميته ومكانته في الاستدلال على القضايا والأمور المستنبطة ، كما لا يغفل عن الحديث عن الرسول ﷺ وإعطاء صوره تحليلية للمخزون العقلي كسباً وموهبة علماً تجريبياً وعلماً لدنياً ، فيقول: (**ومن علم الأصول الأخبار**) .

فإن النبي ﷺ أفصح العرب والعجم ، وكان معلَّماً يوحى إليه من قبل الله تعالى، وكان عقله محيطاً بجمع العلويات والسفليات [1].

فكل كلمة من كلماته بل لفظ من ألفاظه يوجد تحتها بحار من الأسرار وكنوز الرموز ، فعلم أخباره ومعرفة أحاديثه أمر عظيم ، وخطب جليل ، لا يقدر أحد أن يحيط بعلم الكلام النبوي إلا أن يهذب نفسه بمتابعة الشارع ، ويزيل الاعوجاج عن قلبه بتقويم شرع النبي ﷺ [2].

فالإحاطة بالمضمون النبوي لا ترضخ لظاهر الحديث أو لما يبدو لفلان من المفسرين أو لفلان من الباحثين ، وإنما لابد من شمول الإحاطة والتعرف على تاريخ العبارة والمكان والزمان الذي قيلت فيه ، واللبس المحيط بالحديث .

وباختصار :فإن تناول الحديث للمتناوِل إنما هو مسلك أدبي خلقي لابد من التعرف على ما بين دفتي باطنه وقلبه من صحة الإيمان والخوف من الله عزوجل ، ومن موقع معرفة المقام الأسمى للنبي ﷺ ، كما هو الحال في شراح وجامعي الكتب الصحيحة كالإمام البخاري ومسلم

---

(١) الإحاطة هنا إحاطة نسبية من خلال ما أطلعه الله عليه، وليس الإحاطة الكلية .

(٢) هذه الشروط التي أشار إليها الإمام لتكون في المفسر لعلم الأصول شروط ولاشك سليمة تغلق الباب أمام هواة التحليل المتحذلق وهواة الحديث لمجرد النيل من الإسلام وشخص الرسول ﷺ ، دون مقومات أو أسباب ، ودون إعارة اهتمام للأخلاق الأدبية والسلوكية .

وغيرهـم ، ممـن كانـوا يعرفـون قيمة النبـوة ومقامهـا الأشـم ، فكانوا لا يتناولـون الحديـث إلا وهـم علـى طهـارة، ولا يثبتونه في كتبهـم إلا بعد شهور من التحري # ، فكانت كتبهم مرجع الباحث ومورد الظامىء .

ولأن الإمام «حجة الإسلام» قد عرف المقامين مقام المصدر التشريعي الأول ومقـام المصدر التشـريعي الثاني فقد رضي بذاته أن يضع شـروط الأخـذ مـن الأصول ، ووضع مقومات الباحـث اللازمة في هذا المجال ، فقـال : «**ومن أراد أن يتكلم في تفسـير القرآن وتأويل الأخبار ، ويصيب فـي كلامه فيجـب عليـه أولاً : تحصيل علم اللغـة والتبحر فـي فن النحو والرسوخ في ميدان الاعراب ، والتصرف في أصناف التصريف** [1].

فإن علم اللغة سُـلَّمٌ ومرقاةٌ إلى جميع العلوم [2]، **ومن لم يعلم اللغة فلا سبيل له إلى تحصيل العلوم . فعلم اللغة أصل الأصول ، وأول علم اللغة معرفـة الأدوات ، وهـي بمنزلة الكلمات المفـردة ، وبعدها معرفة الأفعال مثل الثلاثي والرباعي وغيرهما .**

---

(١) كلمـة تـؤدي مدلولًا هامـاً (تحصيل - تبصر) هـي الأخذ ببدايات هـذا العلم ثم الاسـتمرار من المورد حتى # التعمق (الرسـوخ) ، ويعني الثبات على رأي واحد لكثرة الأوجه الإعرابية على ألسنة العرب .

والرسـوخ دليـل القوة ، ودليـل صلابة الفكـرة الواعية التي تسـتحق الإصرار عليهـا ونبذ سـواها ، ولن يحصل الباحث إلى ذلـك إلا بعد التحصيل والتبحر # (التعـرف فـي أصناف التصـرف) ، والقدرة على وضع الاشـتقاقات في اللفظ ، والإضافة والحذف في الكلمة ، ومعرفة علم الصوتيات ، وهو علم مستقل بذاته ، والإمام يراه من أهم الشروط للمتكلم في علم الأصول ، فيا للغرابة !

(٢) ترفع التربية اليوم شعار (على كل معلم أن يكون معلماً للغة العربية)، والإمام قد سـبقهم بهذه الدعوة قبل مئات السـنين عندما قال : (فإن علم اللغة سُـلَّمٌ ومرقاة إلى جميع العلوم) ،

ويجب على اللغوي أن ينظر في أشعار العرب ، وأولاها وأتقنها أشعار الجاهلية ، فإن فيها تنقيحاً للخاطر ، وترويحاً للنفس [1].

ومع ذلك الشعر والأدوات والأسامي يجب تحصيل علم النحو فإنه لعلم اللغة بمنزلة ميزان القَبّان للذهب والفضة ، والمنطق لعلم الحكمة ، والعروض للشعر ، والذراع للأثواب ، والمكيال للحبوب .

وكل شيء لا يوزن بميزان لا يُتبين فيه حقيقة الزيادة والنقصان ، فعلم اللغة سبيل إلى علم التفسير والأخبار ، وعلم القرآن والأخبار دليل على علم التوحيد ، وعلم التوحيد هو الذي لا تنجو نفوس العباد إلا به ، ولا تتخلص من خوف المعاد إلا به [2].

قلت هذه هي القواعد المنهجية عند الإمام لمريد البحث في الأصول والتي هي أساس علم الشرع و هنيهة من التأمل للفقرات الأخيرة نلاحظ تدرجاً علمياً ينقل المرء من مرحله إلى مرحله ومن حالة إلى حالة ، وهذه سمة من سمات المنهاج الإسلامي في ما يتعلق بالعلوم ، فالمعلم يبحث في علم الأدوات واللغات ليرتقي خطوة للتعرف على علوم أخرى ، يحدوه في كل ذلك التعرف على أسرار هذه العلوم والتي هي في الأساس أسرار الحياة الناطقة بجلال الخالق وعظمته . وينتقل الأمام بعد اشباع الجانب الأول من العلوم الشرعية إلى الجانب الثاني وهو علم الروع . فيقول :-

«أما النوع الثاني من العلم الشرعي فهو علم الفروع» .

وذلك أن العلم إما أن يكون علمياً وإما أن يكون عَمَلياً .

---

(١) وهذا دليل على مدى ارتفاع الذوق الأدبي لدى الإمام ، واعترافه بأثر الأدب في التسلية وشحذ الإحساس فنيا وجمالياً ،

(٢) الرسالة اللدنية ص٣٠ .

وعلـم الأصول هـو العلمـي ، وعلم الفروع هـو العَمَلي ، وهـذا العلم العلمي يشتمل على ثلاثة حقوق :

أولهـا : حق اللـه تعالى ، وهـو أركان العبادات مثـل الطهارة والصلاة والـزكاة والحـج والجهـاد والأذكار، والأعيـاد والجمعـة وزوائدهـا من النوافل والفرائض .

وثانيها : حق العباد ، وهو أبواب العادات ، ويجري في وجهين :

١-المعاملـة : مثل البيع والشـركة والهبة والقـرض والدين والقصاص إلخ..

٢-المعاقدة : مثل النكاح والطلاق والعتق والرق والفرائض ولواحقها.

ويطلق اسم الفقه على هذين الحقينِ .

وثالثها : حق النفس ، وهو علم الأخلاق [1].

قلـت: ولم يطل الحديث بالإمام أمام النوع الثاني من علوم الشـرع فقد فصـل وبيـن مفاتيحـه للقارئ، وتـرك التحليـل والتفسـير للمتخصص ، بخـلاف حديثـه عن النوع الأول، وهـو علم التوحيد، وهو أسـاس الفكر الإسلامي، فقد أشبع جانبه تحليلاً وتوسعاً لما يحتاجه المقام من ذلك .

وقـد سـماه الإمـام (بالعلـم العَمَلي) ، ويقصـد بذلـك كل الأمور التي يترتـب عليهـا حركة بعد النية ، سـواءً كانـت من أفعال العبـادات أو من العادات بقسميها .

أما علم الأخلاق فهو علم مسـتقل بذاتـه لا يرتبط بلون من ألوان العلم العلمي لأهميته في التربية الإسـلامية ، والرسـول ﷺ يقول: {إنما بعثت

---

(١) حذفت بعض الفقرات من النص لعدم ضرورتها في السياق .

(٤١) الرسالة اللدنية ص(٣٠-٤٠) .

لأتمم مكارم الأخلاق} ،

وتندرج كل هذه العلوم تحت ما سماه الإمام (بالعلم الشرعي).

أما القسم الثاني من أصناف العلم فهو (العلم العقلي) ، وقد ولج الإمام إليه بقوله : « وهو علم مُعْضِلٌ مُشْكِلٌ يقع فيه خطأ وصواب » ، وهو موضع في ثلاثة مراتب :

المرتبة الأولى : العلم الرياضي والمنطقي .

أما الرياضي : فمنه الحساب ، ويَنْظُرُ في العدد والهندسة وهي علم المقادير والأشكال والهيئة ، أي: علم الأفلاك والنحو وأقاليم الأرض وما يتصل بها [١] ، ويتفرع عنه علم النجوم وأحكام المواليد والطوالع [٢] ، ومنه علم الموسيقى الناظر في نسب الأوتار .

وأما المنطقي : فينظر في طريق الحد والرسم في الأشياء التي تدرك بالتصور ، وينظر من طريق القياس والبرهان في العلوم التي تنال بالتصديق .

أما المرتبة الثانية : وهو العلم الطبيعي ، وصاحبه ينظر في الجسم المطلق، وأركان العالم وفي الجواهر والأعراض ، وفي الحركة والسكون ، وفي أحوال السموات والأشياء الفعلية والانفعالية [٣] ، ويتولد من هذا العلم النظر في أحوال مراتب الموجودات وأقسام النفوس والأمزجة ،

---

(١) علم الجغرافيا كما يسمى اليوم وعلم الفضاء والكونيات .

(٢) أحد العلوم الخاصة بالنظر في الأفلاك وسيرها وعلاقتها بأحداث الأرض (التنجيم) ، ومنها معرفة الأبراج ، ولا علاقة لهذا العلم بضروف السحر أو قراءة الفنجان والكف ،

(٣) امتزاج بين علوم متعددة كالجيولوجيا والبيولوجيا وعلم النفس والنباتات وعلوم أخرى .

وكمية الحواس وكيفية إدراكها لمحسوساتها [1]، ثم يؤدي إلى النظر في علم الطب، وهو علم الأبدان والعلل والأدوية والمعالجات وما يتعلق بها.

ومن فروعه علم الآثار العلوية [2] وعلم المعادن ومعرفة خواص الأشياء، وينتهي إلى علم صنعة الكيمياء، وهي معالجة الأجساد المريضة في أجواف المعادن.

والمرتبة الثالثة ـ وهي العليا ـ: النظر في الموجود ثم تقسيمه إلى الواجب والممكن ثم النظر في الصانع وذاته وجميع صفاته وأفعاله وأمره وحكمه وقضائه، وترتب ظهور الموجودات عنه، ثم النظر في العلويات والجواهر المفردة والعقول المجردة والنفوس الكاملة، ثم النظر في أحوال الملائكة والشياطين، وينتهي إلى علم النبوات وأمر المعجزات، وأحوال الكرامات، والنظر في أحوال النفوس المقدسة وحال النوم واليقظة ومقامات الرؤيا [3]، ومن فروعه علم الطِّلَّسْمات والزَّيْرَجات وما يتعلق بها [4].

قلت: كل هذا التحليل المتسع في رسالة الإمام لمراتب العلوم تدل بما لا يدع مجالاً للريب أن الإمام قد اطلع على مجمل علوم عصره اطلاعاً كافياً، مكّنه من تقسيمها إلى هذه المراتب، ونحن عندما نقارن حديثه

---

(١) ينبئ كلام الإمام عن إدراك تام بالترابط العضوي بين العلوم، فتراه يفرع علوماً من علوم.

(٢) ربما قصد بالآثار العلوية أسرار الكون،

(٣) علم تفسير الأحلام.

(٤) الرسالة اللدنية ص٣١، ويقصد به علم الحرف والجفر والتنجيم وغيرها.

بمـا وصلت إليه العلوم اليوم نجد من الاختلاف في المسـميات والرموز وأسـماء العلوم الشـيء الكثير ؛ ولكن المثير حقاً أنه في تحليله قد شـمل كل المعارف على المستوى العلمي والأدبي بمفهوم عصرنا اليوم .

وكأنـه قـد عاش عالـم العصر الحديث فـي دفتي التنظير الفكـري ، أو بمعنى آخر سبق عصره بأزمان كثيرة ، والحق يقال إنه يمثل صورة رجل علـم الديـن كما يجب أن يكون ، فالمقارنة بينه وبين بعض علماء عصره ترينـا الموقـف الانهزامـي الذي وقفـه علماء الديـن تجاه المد الفلسـفي اليونانـي وإفراغه فـي حالات عديدة لمحتوى وأدبيات الفكر الإسـلامي لدى البعض من العلماء والمفكرين .

كمـا أخلـدت هـذه التناقضـات الفلسـفية والفكريـة فئات أخـرى إلى الصمت والتقوقع على أنفسـهم ، مما أتاح المجال واسعاً لذوي الأطماع السيئة أن ينالوا من تركيب الفكر الإسلامي الحنيف ، ويحولوه إلى عجينة ترضي أصحاب المصالح والمراتب في المجتمع الإسلامي آنذاك . وقد أشبع هذا المقام كتاب عديدون [1].

ومقامنـا هنا هو مقام السـائح الشـغوف بآثار القدماء، المتطلع إلى سـر أسـرار الآباء وتجلياتهم الروحية الربانية ، لنجد قبسـاً من نور يضيء لنا مسلك الحياة في هذه العَتَمة المُكْتَنِفَةِ قلوبَنا وحياتنا .

---

(١) راجع الكتب التالية :

تجديـد الدين وإحيائـه ، لأبي الأعلـى المودودي/ الطبعه الثالثـة/ دار الفكر/ ص٧٣ .

الغزالي، تيسـير شـيخ الأرض- سلسـلة أعلام الفكـر العربي / منشـورات دار الشرق الجديد - الطبعة الأولى .

نوابغ الفكر الإسلامي / أنور الجندي/ دار الرائد العربي/ الطبعة الأولى .

بيان طرق التحصيل العلمي

قال الإمام الغزالي : **اعلم أن العلم الإنساني يحصل من طريقتين** [1].

أحدهما : التعلم الإنساني .

والثاني : التعلم الرباني .

أما الطريق الأول فطريق معهود ومسلك محسوس ، يقر به جميع العقلاء.

وأما التعلم الرباني فيكون على وجهين : أحدهما من خارج ، وهو التحصيل بالتعلم .

والآخر من داخل ، وهو الاشتغال بالتفكير ، والتفكير من الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر ، فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئي ،

---

(١) الإمام يرسي لبنات المسافات التي يتلقى منها المعارف في الإسلام وعلماء التربية اليوم يتحدثون عن الأهمية البالغة للدراسات التربوية (البيدانموجيا) وما حققتة الدراسات تلك من آراء وفرضيات اعتبرنا نحن ضرورات ثابتة وواجبة القول ، دونما تمحيص أو تحليل لها على منهاج التربية الإسلامية السليم والذي هو مقياسنا ومرشدنا ووجهنا المضئ أمام العالم ، وليس في حواري هذا ما يجلب الخجل كما يعتقدون فالمسألة المخجلة حقاً ، هي جهلنا المطبق بهذا المنهاج واهمالنا له في خضم الصراخ المصم للآذان ، حتى ظلت رؤية عالم من علماء التربية أو عالم من علماء النفس في مناهج أوروبا أكثر قبولاً وتأثيرا في نفوسنا من عالم إسلامي ينظر للعلوم المعاصرة بمنظار الإسلام ، حتى لو كان عالمنا الإسلامي يحمل من الحجج والبراهين المنطقية والعلمية ما يثبت سعة وقوة المنهاج الإسلامي في صدره وكتاباته مع ادراكنا التام في مجال التمحيص والتدقيق . إن أولئك العلماء قد صاغوا آراهم ونظرياتهم التربوية والنفسية بما يخدم سياساتهم الاستعمارية المختلفة زماناً ومكاناً ، وانهم يتعاملون معنا تعامل المتعالي والمتعاظم والقوي ، فكرا وتطبيقاً ،

والتفكـر اسـتفادة النفس مـن النفـس الكلي ، والنفـس الكلي أشـد تأثيرا وأقوى تعليماً [1] من جميع العلماء والعقلاء (٢).

قلت : لذلك نجد المنهاج الغزالي يركز تركيزاً كبيراً على الإلهام العقلي (المعرفة من خلال الموهبة لا الكسب) .

وحتى العقـل لا يغفله الإمام في مدى قدرته على التحصيل ولكن يرى أن مـن العقـول من يكون ذا نور كاشـف فيحصل له قـدرة على التحصيل الرباني بطرق أسهل وأقوى من العقل المادي المألوف ، وفي ذلك يقول الإمام :

«وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغني الطالب بقليل التفكر عـن كثرة التعلم ، فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر سـاعة ما لا تجد

---

(١) =ودعوتنا التي نشـدد عليها في هذا الجانب هو (التفرد)أي تفرد الإسلام بمنهاج مسـتقل فـي كل مناحي الحياة ، لا يحتاج إلى زيـادة ولا نقصان إلا بما يتلاءم في الأطـر الخارجيـة مع تطور الإنسـان في الحيـاة المطردة ، أما لبـه فلايحتاج إلى أخذ ولا استقاء من لب الغير . مهما بدا لنا منهاجهم صالحاً وجيداً فهو السم في الدسم .

(٥٠) يقصـد بالنفـس الكلي التعلم الربانـي وهو العلم الموهوب الـذي لايقبله اليوم العلماء المحدثون ويعتبرونه زيفاً فلا يمكن في مستوى عقولهم أن يوهب إنسان علما دونما تعلم وتربية كافية ولا يوجد في شـرعهم الهاماً ، أما الإسلام فيؤمن كل الإيمـان بالعلـم اللدني الموهـوب من الذات الإلهية لمـن اصطفاه من عباده المؤمنيـن مع اعتبار مرحلة من التهيؤ تسـبق هذه المرحلة ولكنها ليسـت مرحلة تعلم دنيوي معرفي مرتبط بما ألفه الناس من قراءة وكتابة ومطالعة .

(٢) الرسالة اللدنية .

نفس الجامد [1] بتعلم سنة» .

فـإذن فإن بعض الناس يحصلـون العلوم بالتعلم ، وبعضهم بالتفكر [2] ، والتعلم يحتاج إلى التفكر ، فإن الإنسـان لايقدر أن يتعلم جميع الأشـياء الجزئيـات والكليـات وجميع المعلومات [3] ، بل يتعلم شـيئا ويسـتخرج بالتفكر من العلوم شيئاً .

وأكثـر العلوم النظريـة والصنائع العملية اسـتخرجتْها نفـوسُ الحكماء لصفاء ذهنهم وقوة فكرهم وحدة حدسهم من غير زيادة تعلم وتحصيل [4] .

والإمـام في هذا الأمر يصور لنا حالاً أشـبه بالحال الذي سـاد اليوم في الحيـاة العلميـة والعمليـة ، حيث هبطت درجـة التعلم المرتبـط بالتفكير الشـامل ، وأصبـح التفكـر محصـورا فـي حـدود النظريـات ذاتها وحل رموزهـا باعتبارهـا نظريـات جاهـزة [5] ، وكافية لحل مشـكلات الناس ، وأصيب العقل الإنسـاني من جراء ذلك بالعطل وأصبح في حالات كثيرة آلياً يقف عند الرموز ولا يتجاوزها .

---

(١) الجامـد : صاحـب الماديـات ، والمتعلم باسـتخدام عقله المـادي فقط الذي لا يؤجد بالإشراق النفسي والعلوم اللدنية الموهوبة .

(٢) التفكـر : هـو الطريق إلى الإلهام ، وهو المرحلة السـابقة للمعرفـة اللدنية ، وهو لايرتكـز علـى منهاج علمي ؛ ولكنه نور يقذفه الله في القلب يُبصر به وتشـرق له شؤون دينه ودنياه ، ولا علاقة له بعلوم الدنيا المعروفة ، فهي مجرد عرض زائل يتعلمها الناس لقضاء حاجاتهم الدنيوية فقط .

(٣) كلمة شاملة جامعة للعلوم المتشعِّبة والمحتوية على تخصصات متعددة .

(٤) الرسالة اللدنية ص ٣٣.

(٥) وينطبق هذا التشريع الإسلامي في بعض المسائل التي أصبحت توقيفية لا يمكن تجديدهـا لإغلاق بـاب الاجتهاد ، حتى أصبـح الأمر في التشـريع مقتصراً على استظهار النصوص وقراءتها وشرحها والدوران في فلك أصحابها.

ولذلك يقف الإمام من ذلك موقف الناقد ، فترى أن العلم المرتبط بقيود النظريات والدائر في محورها هو علم عقلاني جامد لايطور الإنسان ولا يخدم مصلحته في حياته المتحركة ، وإنما يرى الغزالي أن من الضرورة بمكان استنباط شيء بإضافة صورة جديدة من المتعلم على ما عرفة من أستاذه دون شطط ولا مبالغة ولا تحريف .

يقول الإمام في ذلك :

«فواحد وضع آلة الضرب ـ وهو العود ظ بتفكره ، وآخر استخرج من تلك الآلة آلةً أخرى ، وكذلك في جميع الصنائع البدنية والنفسانية أو أثباتها ، محصَّلةٌ من التعلم . والبواقي مستخرجةٌ من التفكر ، وإذا انفتح باب الفكر على النفس عَلِمَتْ كيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب فينشرح قلبه وتنفتح بصيرته [1] فيخرج ما في نفسه من القوة إلى الفعل من غير زيادة طلب وطول تعب [2].

قلت : ولا ينحصر المثال في الماديات وحدها؛ ولكنه ينطبق أيضاً على كافة المعارف والتي يدعو الغزالي إلى تحصيلها بطرق أعمال العقل زيادة على ما يجده طالب العلم من قواعد وقوانين متداولة ، إذ يمكنه هذا الإعمال العقلي من التطوير الواعي . كما هو حال الإمام نفسه عندما أعمل عقله في جميع العلوم ولم يكتف بظواهر الأحكام المنصوص عليها ، فأصبح بمعارفة الباقية إلى اليوم يمثل شحنة قوية من التطوير

---

(١) صورة جديدة من صور منهاج التربية الإسلامية ، وهو كون مجمل العلوم العقلية رياضة روحية ترفع البصر والعقل إلى درجة انفتاح البصيرة وخروج ما في النفس من القوة إلى الفعل .

(٢) الرسالة اللدنية ص٣٤.

والتجديد ،

أعاد الإمام الغزالي أموراً عديدة إلى نصابها ووضع عليها سوراً محكماً بعد أن كانت ضعيفة الجانب يتطاول عليها البر والفاجر ، وهو عمل مضنٍ وشاق امتزج فيه لدى الإمام التعلم الإنساني المكتسب والتعلم الرباني الموهوب .#

وقد تناولنا في حديثنا الآنف القسم الأول من التعلم ، وهو التعلم الإنساني ، ونتناول الآن (القسم الثاني) وهو ما يكثر الخلاف حوله مع غير المسلمين[1]» ، ويُعد هذا العلم محور التفرد في منهاج التربية الإسلامي وهو (التعلم الرباني) .

والإمام يقسم هذا اللون من التعلم إلى قسمين :

الأول : إلقاء الوحي :وهو أن النفس إذا كَمُلت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل، وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأماني الفانية .

ويضيف الإمام سرده عن هذا القسم : **ويصير العقل الكلي كالمعلِّم ، والنفس القدسية كالمتعلم ، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس ، وتنتقش فيها جميع الصور من غير تعلم ولا تفكر[2] ، ومصداق هذا قوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : « وعلمك ما لم تكن تعلم .**

فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق .

---

(١) الرسالة اللدنية .

(٢) لا تناقض هنا بين ما أورده الإمام وبين دور مرحلة التهيؤ التي تسبق الإلهام ، ويقصد هنا بهذا القول ما يجمعه طالب العلم من غير جهد ولا تكليف ، وإنما بقوى فطرية وعناية ربانية تساعده في احتواء المعارف ، وهذا من خواص الأنبياء والرسل .

قلت: ولا يعني الإمام بهذا اللون من العلوم أنه علم منفصل عن العلوم المكتسبة والتي هي ضرورية أيضاً، وإنما هو سردٌ لألوانِ طرائق العلوم والمعارف التي يتعلم بها البشر ، ولأن من العلوم علوماً لم يدركها البشر بتجاربهم وبحوثهم ودراساتهم تصديقاً لقوله تعالى : {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً}.

وهذه العلوم المجهولة قد يطلع الله عليها بعض أصفيائه ، والقرآن ذاته يحدثنا عن فصيلة من خلق الله لا يدركون كل شيء ، إنهم الملائكة حينما خاطبهم الله في سورة البقرة { أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين } فأقروا بمحدودية معرفتهم وأسندوا المعرفة إلى الله تعالى: {لا علم لنا إلا ما علمتنا} [1].

إذن والحال كذلك فالإمام يبين لنا أن طرائق العلوم على حالين :

علوم يكتسبها البشر بالتجربة والمشاهدة، فينقلونها إلى غيرهم ، وهي العلوم المعروفة اليوم بعلوم الحياة ،

وعلوم يكتسبها البشر برياضات روحية وإشراقات نفسية وصفاء رباني ، وهو لون موهوب ، وهو أقوى وأكمل .

وهذا اللون الرباني هو من صفات الأنبياء كما تناولنا ذلك آنفاً ، والرسول ﷺ يقول لأصحابه (أنا أَعْلَمُكُم وأخشاكم لله تعالى) ، ونجد الارتباط واضحاً بين قول الرسول ﷺ هذا وبين قوله تعالى : {إنما يخشى الله من عباده العلماء } .

وإنما كان علمه ﷺ أكمل وأشرف وأقوى لأنه حصل على التعلم الرباني ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنساني (علمه شديد القوى)[2].

---

(١) الرسالة اللدنية ص ٣٥.

(٢) الفيلسوف العربي «الكندي» يؤكد أيضاً رأي الغزالي في المعرفة بالإشراق

المُنقِذُ مِنَ الضَّلَالِ

الـرسـالـة الثالثة

ذكر الإمام في كتابه المنقذ من الضلال منهاج النبوة ، أي : الرسالة السـماوية الصحيحة ، فقال عنها : **لا سـبيل إليها بالتجربة ، ولا تدرك إلا بإلهام إلهي وتوفيق من جهة الله تعالى**[1].

وهذا ما عبر عنه الكِنْدي بأنه الذروة العليا للإشراق ، أما الذروة السفلى فقـال الغزالـي عنها : **(فـإذا فهمتَ معنى النبوة وأكثـرتَ النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري)**[2].

وهـو فـي ذروته العليا خاص بمن يصطفيهم الله للنبوة والرسـالة ، فهاهو يقول : (وهؤلاء الذين اصطفاهم الله فلعلمهم خصائص تبعده عن العلم الكسبي ، إنه بلا طلب ولا تكلف ولا بحيلة بشرية ولا بزمان).

والكنـدي بقولـه هذا يوافق الغزالي في أن هذا المنهـاج له طرائق يمكن اتباعها والالتزام بها باعتبار الذروة السفلى الممكنة للبشر : الإلهام ، أما الذروة العليا فهي للأنبياء . اهـ التفكير الفلسـفي في الإسـلام ص٣٠٢ للدكتور عبد الحليم محمود .

ويضيـف الكنـدي أيضاً عن ذروتي هذا العلم فيقول : إنـه علم إلهي ، وإذا كان ذلـك خالصـاً بمـن يصطفيهم اللـه فإن في أفراد البشـر من يصل إلـى مراتب من العلم الإشـراقي الذي يتأتـي عن صفاء النفـس، وإن كان دون مرتبة من العلوم . اهـ المصدر السابق .

(١) المنقذ من الضلال (ص٥١).

(٢) المنقذ من الضلال (ص٥٢).

ولا ينسى الإمام في عرضه لهذا المنهاج أن يشير إلى ضرورة العمل . فالسالك لهذا المنهاج يجب أن يكون قوله مقروناً بعمله حتى يتفجر له ينبوع المعارف ، لقول الرسول ﷺ : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) [1].

والعلم اللدني هو العلم الذي كان للخضر عليه السلام والذي وصفه القرآن بقوله (وعلمناه من لدنا علما).

وقال أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (أدخلتُ لساني في فمي فانفتح في قلبي ألف باب من العلم مع كل باب ألف باب)[2].

قلت: ولا تُعد هذه مبالغة من الإمام علي عليه السلام ، وإنما هي حقيقة إشراقه وادراكه اللدني من مواهب الذات الإلهية ، وهو لم يبلغ هذا المقام الأسمى إلا بالمجاهدة النفسية والرياضة الروحية والأخذ التام # من معلمه الاعظم ﷺ والعمل من أجل سعادة المسلمين واعلاء كلمة الله تعالى .

قال الإمام الغزالي عن هذا النموذج الفذ من نماذج التربية الإسلامية :

(هذه مرتبة لا تنال بمجرد التعلم الإنساني ، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدني) ،

(وحقيقة الحكمة تُنال من العلم اللدني ، وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيماً ، لأن الحكمة مواهب من الله تعالى : (يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٥٤.

(٢) الرسالة اللدنية ص ٣٦.

وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثيرة التحصيل ، فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً[1] .

قلتُ: ونظرة بتمعن إلى تاريخ التربية الإسلامية في عصور ازدهارها نجد كثيراً من العارفين بالمقامات الربانية من السادة الصوفية من وهبه الله علوماً واشراقاً ومعارف لاتحد ولا تحصى وتفرد بها عن غيره من أهل العلوم ، وبدراسة أولئك الرجال وتحليل أساليب حياتهم وطرق سلوكهم ومعارجهم# في سلم المعرفة نرى التفرد العظيم الذي جاء به الإسلام في تربيته لرجاله الكمل الذين خدموا دينهم علماً وعملاً ، يطلبون رضاء ربهم ، ولا # يلتفتون إلى عرض من الدنيا ولا إلى غرض من أغراضها ، واضعاً كل منهم نصب عينيه قول المصطفى ﷺ : (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) ،

ولا أشك اليوم في الحالة التي قد تعتري أحد أولئك الذين أضلهم الله على علم ، وهو يقرأ ما كتبته عن هذا المنهاج ، فينبري مؤكداً لبطانته بُعد الأولياء والعلماء عن واقع الناس ، وأنه لايعدو الخرافات والتحليق في أبراج الوهم المصطنعة ،

ولكن الإمام الغزالي لم يترك هذا الأمر دون إجابة ، وإنما أشار إلى هؤلاء المتحذلقين بأنهم يعانون عارضاً قد طرأ على نفوسهم يحجبهم عن فهم الحقيقة ، مع أنهم يستطيعون إدراك هذا الأمر متى ما تحررت# نفوسهم من # المادة الكثيفة ، فيقول الإمام :

اعلم إن العلوم مركوزة في جميع النفوس الإنسانية ، وكلها قابلة لجميع العلوم ، وإنما يفوت نفساً من النفوس حظها منه لسبب طارئ وعارض

---

(١) الرسالة اللدنية ص ٣٦ .

يطرأ عليها من خارج ، كما قال النبي صلى الله علية وسلم: (خلق الناس حنفاء فاختالتهم الشياطين) وقوله : (كل مولود يولد على الفطرة)[1].

وأما النفوس المريضة في هذه الدنيا الدنيئة فصارت على مراتب ، بعضهم تأثر بالمرض المنزل ، ودَقَّ غمامُ النسيان في خواطرهم، فيشتغلون بالتعلم ويطلبون الصحة الأصلية ، فيزول مرضهم بأدنى معالجة ، وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر ،

وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ويشتغلون بالتعلم ويطلبون الصحة الأصلية ، فلا يزول مرضهم بأدنى معالجة ولا ينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر ،

وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ويشتغلون بالتحصيل والتصحيح جميع أيامهم ولا يفهمون شيئا ، لفساد أمزجتهم ، لأن المزاج إذا فسد لايقبل العلاج ، وبعضهم يتذكرون وينسون ويرتاضون ويذلون أنفسهم ، ويجدون نوراً قليلاً وإشراقاً ضعيفاً ،

وهذا التفاوت إنما ظهر من إقبال النفوس على الدنيا واستغراقها بحسب قوتها وضعفها، كالصحيح إذا مرض ، والمريض إذا صح ، وهذه العقدة إذا انحلت تقر النفوس بوجود العلم اللدني وتعلم أنها كانت عالمة في أول الفطرة، وصافية في ابتداء الاختراع ، وإنما جهلت لأنها مرضت بصحبة هذا الجسد الكثيف ، والإقامة في المنزل الكدر والمحل المظلم.

قلتُ: هذه هي مراتب النفوس عند الإمام في طرق التحصيل للعلوم ، ولعل صاحبنا قارئ هذه الكليمات لا يعترض على ما كُتب إلا لأنه يملك نفساً ترزح في مرتبة من تلك المراتب ،

وما عليه بعد ذلك إلا أن يبحث في دواخل ذاته ويمحص ، فربما

---

(١) الرسالة اللدنية ص ٣٧ ، فصل مراتب النفوس في تحصيل العلم .

استطاع أن يعود إلى الطريق السوي فيعاتب نفسه ويلومها ويرجع من قرب أو أنه يركب عقله فيزداد قسوة على قسوة وشططاً على شطط وينال من الدين وأهله ، فيخسر بذلك نفسه وأهله وماله ، وبئست الخسارة سواءً قَدَّر حجمها بنباهته وفطانته أو لم يقدرها ، فهي ولا شك تنخر في عظم كيانه نخر دابة الأرض للخشبة المبتلة.

ويعنينا في موقفنا هذا ما قرره الإمام الغزالي عن العلم اللدني وأثره على المريد المؤمن بهذه الطرائق الشريفة ، فيقول :

الأول : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها [1].

الثاني : الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة لقوله ﷺ : (من عمل بما عَلِمَ أورثه الله علم ما لم يعلم) . وقوله : (من أخلص لله أربعين صباحاً أظهر الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) .

الثالث : التفكر ، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تفكرت في معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب [2].

قلت : وكم هي سعادةُ امرىءٍ وفقه الله لهذا السبيل المرضي ، سبيل الطلب من مصادر الطلب الصحيحة ، سعادة لا تقاس بسعادة طلاب الدنيا ولا تقارن بقدرها لا من قريب ولا من بعيد ،

والخطوة الأولى في هذا الطريق المستقيم هو العمل الخالص لله ، أن

---

(١) صورة مشرقة للمنهاج الإسلامي في الذروة السفلى للمريد و إذ يفتح المجال الواسع لطالب العلم ليتعلم كل ما يمكن له أن يستوعبه في حياته ، وبهذا يكون المنهاج الإسلامي أوسع أفقاً من مناهج كثيرة تدعي العلم وهي تغلق أبواب المعارف #إلا من مصدرها ، وتمنع تداول الكتب تحت تبريرات واهية .

(٢) الرسالة اللدنية ص٤٠ .

يكون العبد المؤمن في كل عمله الديني والدنيوي يبحث عن رضى الله ، سواءً كان في مسالك التدرج المعرفي عن طريق التعلم الإنساني، أو كان في بحبوحة العطاء الرباني في مسالك ومدارج التعلم الرباني ،

والتواضع في العلم هو ما يسميه سادتنا الصوفية بموت النفس ، فالنفس الشامخة لا تصل إلى مراتب العلا الروحية إلا بارتياضها وتأديبها واتباع الحق في مقام الحق ، أما ما نحن فيه اليوم من طلب للعلوم الدنيوية في معاهدنا وكلياتنا ، لايعدو كونه تدرجاً# لقسوة القلوب وغرور النفوس دونما شيء غير الجهل والادعاء ، فكم من طالب علم في هذه المعاهد والكليات أنفق جل عمره بين الكتب والمراجع وبين القاعات والفصول ولكنه سيء الخلق ميت الأثر ضعيف التأثير .

لسانه أسبق من عقله ، وغروره أكثر من فعله ، لا تأنس إليه إلابمقدار ، ولا ترى في وجهه غير الفرح بنفسه وبمعرفته ، وهو لا يعرف شيئاً عن حقيقة أمره وحاضره وغده ، ودينه ، وإيمانه ،

وجدير بشباب المسلمين اليوم أن يعيدوا النظر في مناهج المعارف العلمية ، ويمحصونها تمحيصاً دقيقاً، وينهجوا بعد ذلك طريق الجادة السوية التي قال القرآن عنها : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

هذه هي سبيل المسلمين الصحيحة ولا غيرها ، ومن اتخذ له منهاجاً خارجاً عنها فقد خطأ الطريق وخرج عن الجادة .

ودعوتنا في خضم هذا الصراع الثقافي أن نمزج بين ثمرات التعلم الإنساني والتطلع إلى التعلم الرباني ؛ لنشعر بدفء العطف الإلهي والرحمة الأزلية ، وندخل في قوله تعالى :

{ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط } .

وفقنا الله إلى الطريق المستقيم ، وجعل جمعي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأسأله التوفيق في كل حال .